اللغة والشعر والنثر

فى جزيرة العرب

[من كتاب تحت الطبع بعنوان: قلب جزيرة العرب]

بقلم فؤاد بك حمزة وكيل خارجية الحجاز

اللغة

إذا استثنينا العدد القليل من مهاجرة العالم الاسلامى المجاورين فى الحرمين الشريفين ، فإننا نستطيع القول: إن اللغة الوحيدة فى البلاد هى اللغة العربية ، وبالرغم من وجود العناصر الأجنبية عن العربية فى الحرمين الشريفين وما صاقبهما، فإن لغة التخاطب بين هؤلاء الأغراب أيضا إنما هى العربية . وبالنظر إلى كثرة الوافدين فى موسم الحج على بيت الله الحرام من أنحاء العالم الاسلامى وضرورة القيام على تعهدهم والعناية بشئونهم ، فإن كثيرين من أهل الحرمين يتقنون عدة لغات أجنبية يستطيعون بواسطتها أن يتفاهموا معهم .

وقد اعتور اللغة العربية فى المدن الحجازية وسواحل الخليج الفارسى شىء كثير من الوهن والضعف ، وخالطها كثير من الألفاظ والتعابير الأجنبية ، حتى إن الملاحظ ليدهش من كثرة الألفاظ المعربة والدخيلة مما دخل فى قاموس القوم ، وبالأخص العوام منهم ، ويحزن من ضعف شأن اللغة وقلة العناية بدراستها .

ولسنا هنا فى معرض الدخول فى تفاصيل هذه الكلمات الدخيلة أو العبارات الأعجمية ، ولكننا أوردنا قليلا من كثير مما هو شاهد على خفض حال اللغة العربية فى مدن الحجاز واختلاطها بكثير من اللغات الأعجمية وإهمال أهلها لها .

واللغة الفصيحة واحدة بالطبع فى جميع الأنحاء ، إلا أن اللهجات المحلية تختلف اختلافا بيناً ؛ فلغة أهل الأمصار الحجازية — كما ذكرنا — لغة عامية تشوبها كلمات وتعابير أجنبية عديدة ، ولكلمات مقاطع ونبرات ونغمات مختلفة قد بعدت عن أصلها العربى ؛ حتى إن الألفاظ الفصيحة — هى بالرغم من بقائها صحيحة التركيب — قد تطرق إلى تلفظها شىء حادث لا يشاهد عند سائر أبناء العرب .

وأما حاضرة نجد فإنها أقرب إلى اللهجة الفصيحة من حاضرة الحجاز ، وما سبب ذلك إلا بُعد أولئك عن مخالطة الأعاجم وقلة الدخيل فى لهجاتهم الأصلية ، ومع ذلك فإن اختلاف اللهجات بين البلدان المختلفة واقع ومشاهد .

وأما البادية فإن إطلاق تعريف شامل على لهجاتها غير ممكن أيضاً ، فهنالك بداة ماتزال لغتهم أقرب اللهجات منها إلى اللغة الفصيحة،على حين أن هنالك آخرين ليسوا من الفصاحة على شيء . وأهل نجد أصرح لغة من أهل الحجاز ، لقرب هؤلاء من الحرمين واختلاطهم بالأجانب،وبعد أولئك عن كل تلك العوامل ؛ ولكن أفصح اللهجات وأقربها إلى الفصيحة، فيما نعتقد ، هي اللهجات اليمانية الواقعة مابين جنوبي الحجاز وشمالي اليمن . وكثيراً ماسمعنا هل هذه البلاد يلفظون الكلمات من مخارجها الصحيحة ،ويتكلمون بما هو أقرب إلى الفصيح من سواه . وبعض البداة من أهل هذه المنطقة يخرجون جملا يظن منها الإنسان أنهم تمرنوا في المدارس على إخراجها على ذلك النحو ، في حين أن الحقيقة هي بخلاف ذلك ، لأنهم يتكلمون بالسليقة وعلى البديهة ، فيجيء كلامهم فصيحاً معرباً لا غبار عليه ؛ ويستعملون ألفاظاً نظنها في الأقطار العربية المتمدينة مهملة متروكة ، ولكنهم هم يستعملونها على البداهة .

وبالرغم من وجود قبائل تتكلم بأقرب اللهجات إلى الفصيحة فإن هنالك كثيراً منهم يخرجون الحروف والألفاظ من الحلق على خلاف ما وضعت له ، كما أن هنالك حروفا تنقلب إلى أشكال وصور أخرى لاتخطر على البال، وتُنسي الشنشنة والتمتمة والكاكأة وغيرها بجانبها.

وإننا نورد هنا على سبيل المثال بعض الحروف والأشكال التي يخرجها أهلها بها، ليكوّن القارىء لنفسه رأياً فيما ذهبنا إليه :

الحرف	طريقة لفظه	مثال	القبيلة التي تنطق به
حرف الجيم	ى	الجيم في مسجد تلفظ ياء	أهل اليمن والنمور في وادي محرم
القاف والكاف	تس	حكى تلفظ حتسى	أهل نجد
» »	تش	بكى تلفظ بتشى	»
» »	ك مفخمة	قال تلفظ كال	»
» »	س	عبيكى تلفظ عبيسى	»
» »	ج	العقير تلفظ العجير	»
الضاد والظاء	ل	الظهر تلفظ اللهر	بنو سفيان
» »	»	الضيف تلفظ الليف	»
حرف الياء	بين الألف والياء	مطير تلفظ امطاير	»
أل (أداة التعريف)	م	البيت تلفظ أم بيت	أهل اليمن

وعربان شمر وسائر أهل الجبل يلفظون التاء المربوطة كالتاء الممدودة ، فيقولون للفهدة الفهدت ، والساعة الساعت ، كما أن بعضهم يقلب التاء المربوطة ياء ، فيقول في الحويطات الحويطاى ، والشرارات الشراري .

الشعر

الذين ينظمون الشعر الموزون فى البادية على البديهة قليلون جداً ، ولكن كثيرين فى البادية،فضلا عن الحاضرة،يقرضون نوعاً من النظم هو دون الشعر الصحيح ،فلا يراعون فيه ما يراعى فى الشعر الموزون ، ويسمون ما يقرضونه شعراً نبطياً . وهو من حيث أداء المعنى وإفادة السامع يقوم مقام الشعر الصحيح ، وفيه كثير من التوريات والكنايات والمجازات ، ولكنه على كل حال لا يتقيد بضوابط الصرف والنحو والمعانى والبيان . وقد أوردنا فيما يلى بعض الأمثلة على هذا النوع من الشعر النبطى اخترناها من منظوم قبائل مختلفة:

نبط حجازى

من نظم« خضر بن عويد الغرى»ألقاها بين يدى سمو الأمير «فيصل بن عبد العزيز » فى الدار البيضاء :

انتبه للخط خليه بثبات ... لا تعيّن فى علوم مقفيات
كم صبى فارق الدنيا ومات ... راح مثل العيد ومن العايدين
اسمع اقوالى وجود فى الكتاب ... شابت اللحية وشوف الراس شاب
ما بى يقعد على الدنيا شباب ... كل منا للمحاسب رايحين
وانتبه للضيف يا صقر الصقور ... لا فلا والله تخبر فالنفور
كثر الترحاب وعجل بالفطور ... وقول هذا يسرنا يا محسنين
انتبه للهجرة اللى تستدير ... فى البلد حاكم ومن تحته وزير
ضن قلبى غيرهم ما يستخير ... حكمهم طيب على اللى طيبين
قرروها بالعساكر والسيوف ... راح أبو فيصل توى يصلى ويطوف
لازم الكرسى وله عسكر صفوف ... من عيال الشرق معهم صادقين
روع العاصى ورده عن هواه ... إلى أن قال الموت أخير من الحياه
ناشر البيرق مكانه ما طواه ... يرقب اللى بالخيانة عاثرين
وأمن الخايف إذا راح الدروب ... بالذهب يمشى إلى ديرة حروب
بعد كانت تأخذ الطرقى غصوب ... شامهم فيصل وقالوا تائبين

نبط عتيبى

قال أحد العتبان مخاطباً عمه :

ياعم واوجدى على وساق (١) حرة (٢) بعيدة المرماح (٣) لو درت أنا الورك (٤)
نشرب حطافيل القلس يوم أفره والجيش من فوق الجواعد (٥) لمن عرك
تجفل إليا (٦) سمعت مع الحزم (٧) فره فرة قطاة حركت بيضها حرك

فأجابه عمه :

أبوك ياللى طلبتك بس حرة بينى وبينك سامك العرش يقهرك
ما قلت بزود (٨) قمة خشم حرة وبيت كبير وضامر البطن ينهرك
عسلوجة (٩) تلعب بعود الجرة تنهب قلوب أهل الهوى وأنت تسحرك
إن كان ربك ناوى لك مسرة احدر (١٠) حيال الأسباب واظهرك
وإن كان ربك ناوى لك مضره لو انت بروس الشواهق أحدرك

نبط شمرى

من شعر عبيد بن رشيد :

هيه ياللى لك مع الناس وداد ماترحمون الحال ياعزوتى (١١) ليه
ماترحمون اللى غدا دمعه أبداد طول الزمان وحرق الدمع خديه
من شوقتى للغر ومزبود الأنهاد متمشلح يطا على قدام رجليه
الشوك ماله عن مواطيه رداد أيضاً ولا سبت (١٢) قوى يوفيه
إليا عاد مانصل ونضرب بالحداد هبيت ياسيف طوى الهم راعيه

نبط عنزى

قال أحد موالى العمارات فى امرأة عشقها منهم، وأخرج من ديرتهم بسببها، فلما رحلوا عن المنزل عاد إليه يذكر المرأة ويبكيها :

أبكى هلى (١٣) ياناس مالى بعليوم (١٤) والظن من يبكى هله ما يلام
جيت المراح وصار بالقلب ملعون منازل الخلان هم والعمام
هذا مشب النار والحجر مثلوم مركا دلال متعبات الشوام
وهذى مرابط خيلهم دائم دوم عقب العيون مروبعات الهواجى
اقفوا (١٥) كما طير قلب رأسه الهموم بفج عميق ولا يندرى وين (١٦) هامى
أدنى منازلهم جثاثاً وملوم (١٧) وأقصى منازلهم مداخى النعام
اليالفيت لديرة الأصحاب من قوم إفرح ترى حمد الرجال العلوم

١) مصادرة أو نهب (٢) ناقة (٣) الخطى (٤) يقصد حينما يركبها ويضم رجله حول عمود الشداد ، (٥) الجلود (٦) حينما (٧) الجبل (٨) أكنة (٩) من صفات الناقة الجيدة (١٠) انزل (١١) جامعتى (١٢) تعل (١٣) أهلى (١٤) ملوم (١٥) سافروا (١٦) اين (١٧) منازل

نبط عنزى من أهل الشمال

عينى جزت عن نومها بان الإصباح ... وعينى جزت عن نومها واسهرتنى
جيت لمنازل ربعنا وجيت المراح ... ولقيت مركا [١] دلالهم ذكرتنى
يادار لاتبكى أمر مضى وراح ... دور السنة يادار أرجيه ما يفنى
فارقتنى يادار كالبدر وإن لاح ... يوم أرحلت يادار ما شاورتنى

النثر

ضعفت كتابة النثر بضعف اللغة إجمالا ، واندثرت الكتابة الأنيقة الصحيحة من أكثر بقاع المملكة . أما فى البادية فقل أن يوجد من يكتب اللغة الصحيحة ، وأما فى الحجاز وحاضرة نجد فإنه توجد طبقة من المتعلمين والفقهاء وطلبة العلم يجيدون الكتابة ، إلا أنهم أقلية ضئيلة. وقد تناولت النهضة الحديثة شبان الحجاز فشرعوا فى اقتفاء أثر من سبقهم من إخوانهم وأبناء عشيرتهم فى الأقطار العربية الأخرى ، ولكن البلاد مازالت محتاجة إلى زمن كاف لكى تخطو المرحلة التى خطتها أخواتها . وهانحن ننشر فيما يلى أنموذجاً من الكتابة المستعملة فى البادية ليعلم منه ضعف التركيب وركاكة العبارة وعدم التقيد بالقواعد الصرفية والنحوية:

كتاب كبار عتيبة إلى جلالة الملك عبد العزيز

إلى جناب الإمام المكرم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل سلمه الله تعالى أبقاه آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . بعد ذلك سلمك الله سمعنا بجهاد إخواننا الحروب واستأذناك فى القدوم إليك لأنه مابقى لدينا صبر ولا قرار إلا نشوفك ونتعرض لأمر الله ثم أمرك، ووصلنا هنا ومضى علينا عشرون يوماً مانبيتنا [٢] فى شيء وسمعنا فى قعودنا هذه ماكدر خواطرنا نسير [٣] على العيال وعلى إخواننا أهل العارض ونسمع عندهم فى هالجرايد بين قادح ومادح وحنا حاربنا الترك وابن رشيد والشريف ماصارت فوايهم [٤] مثل فوايه ابن رفادة فارة منطلقة من جحرها . وفهمنا أن هذا دسايس يسوونها أهل الشر مع مابلغنا من أفعال ها (. . . [٥]) عبد الله ومراسيله للعربان الشماليين وغير ذلك من الأمور الذى مانخفى عليك بقى بالخاطر ياعبد العزيز كما قيل آية السيف تمحو آية القلم .

إن كنت ياوالى [٦] أمرنا شايف منا تقصير فأخبرنا به ونستغفر الله ونتوب إليه، إن كان إنك خابر إذا جانا أمرك توانينا عنه فهذه حجة لك علينا إن كان حنا إخوانك وخدامك

١ الموضع الذي توضع عليه الدلال لصنع القهوة (٢) أبأتنا (٣) نزور (٤) من فاهة أى رائحة (٥) هنا ألفاظ لم تنشر (٦) ولى أمرنا .

المطيعين ذبحنا عدوك وذبحنا بنى عمنا دون دينا وولايتنا وأنت تعرف ذلك منا ، نرجو من الله ثم منك أنك ترحمنا الله يرحمك وتفكنا من هذه العلة التى بكبودنا [1] حطت أعدائنا الحبة قبة والغارة أسد وحنا ممددين رجلينا أحد يزوع واحد يركب لابن سعود وتعرف الخذلان كله باتباع أذناب البقر ، اليوم حنا طالبين الله ثم طالبينك يوم الله جمعنا فى هالحل أن ترخص لنا نتبع إخواننا والله يوم جرا هذا الكون من إخواننا وسمعنا برقيتهم لك وحنا لا عاد أكلنا ولا شربنا ولا عاد نمنا الليل وحنا مدخلينك على الله ثم مدخلينك على الله إنك لا تحدثنا ولا تثبطنا من أمر فيه عز لديننا ودنيانا العدو ماينقلب صديق والشر دائم فى أهله وحنا بغينا لانجيبك كلنا مرة واحدة ، ولكن تعرف ماتحب التشويش وأخذنا الأمر بالآداب وقدمنا هذا المكتوب ورجانا من الله أن يمدنا بعنايته ثم ترخص لنا فان حصل المطلوب فتمم فان ما حصل فلا تلومنا إن جينا عند بابك وصحنا ونبرأ إلى الله أن يكون الأمر تجروا على أمرك أو لنا فيه حظ من حظوظ الدنيا إنما هو حفظ لديننا ومحاماة لوطننا ونحن منتظرين الأمر من الله ثم منكم والله يحفظك والسلام . ؟

إخوانك وخدامك

عتيبة

كافة كبار الروقة وكبار برقة

فى الطايف

---

١) أكبادنا

نظرات

كم ذا يعاشرنى خِلٌّ فأحسبه ... من صنعة الودِّ أنقى من فلم الزهر

ونفسه فى مديد الغدر سابحةٌ ... كأنها شررٌ يُلْقَى على شَرَرِ

يريد بى ما تريد النارُ من حطبٍ ... لولا التزوُّدُ من حامى ومن حذرى

مرسى شاكر الطنطاوى